الشيوعية الفلسطينية ان تضرب جذورا عميقة بين صفوف السكان العرب الفلسطينيين، واظهرت، وللمرة الأولى في تاريخها، تفهما واضحا لطبيعة العلاقة الديالكتيكية التي تربط بين الوطني والطبقي في نضال الطبقة العاملة التي تتصدى لحل مهام الثورة الوطنية التحررية»، ثم خلص الى القول: بسبب هذا، فان الحركة التي يشكلها التيار الوطني اليساري، والشيوعيون في صلبه، تمكنت من «ان تتصدر النضال الوطني التحرري الذي كانت تخوضه الأمة ضد الامبريالية والصهيونية». وربما لأن استنتاجا كهذا الأخير قد يثير الدهشة ويدفع الى التساؤل عن سبب فشل «نضال الأمة»، والشيوعيون يتصدرونه، فان د. الشريف يختم كتابه بجملة واحدة يضع فيها اسباب الفشل كلها ناسبا اياها الى «ان المؤامرة كانت اكبر بكثير، واكبر من كل الطبقات الخيرة في فلسطين» (ص ١٣٦).

وهكذا يقع على عاتق المؤامرة سر النكبة التي حلت بالجميع عام ١٩٤٨.

وقبل الخاتمة، التي ضمت الاستنتاجات الأربعة، نسب الكاتب اسباب قيام عصبة التحرر الوطني، بعد انقسام الحزب الشيوعي الفلسطيني الى عرب ويهود، الى «انتعاش الحركة العمالية العربية في فلسطين واتساع صفوفها، وتنامي الاتجاهات التقدمية بين صفوف المثقفين العرب، وانتصارات الاتحاد السوفياتي وصمود شعوبه في وجه العدوان النازي، وتزايد انتشار افكار الاشتراكية العلمية وتشكل العديد من الحلقات الماركسية»؛ ورأى «ان ذلك كله قد ساعد على تشكل تيار وطني تقدمي بين صفوف جماهير العمال والمثقفين العرب في فلسطين»، وان هذا التيار كان «يسعى الى ايجاد الأشكال التنظيمية الملائمة لتأطير نضالاته وبلورة مواقفه، حين وقع الانقسام القومي في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني، فقام الشيوعيون العرب، الذين خرجوا عن صفوف الحزب، بتحمل مسؤولية تأطير وتنظيم هذا التيار، وكان من نتيجة ذلك نشوء عصبة التحرر الوطني» (ص ١٠٧).

هذا التحليل، وفيه مجمل ما اراد الكاتب قوله بصدد هذه المسألة يُفهم منه امران: ان انقسام الحزب كان محتما بحكم عوامل موضوعية تتصل بالتطورات التي تمت على ساحة الجانب العربي في فلسطين، وان القوميين العرب اليساريين ليسوا هم الذين ارادوا الانقسام، بل الشيوعيين العرب في الحزب، وحين وقع الانقسام، فقط، انضم القوميون اليساريون الى الشيوعيين المنقسمين فنشأت العصبة.

وعند هاتين النقطتين، من بين النقاط العديدة الهامة الأخرى في الكتاب، يجدر بنا ان نتوقف.

فهل كان محتما حقا ان يفترق الشيوعيون العرب واليهود بسبب الظروف التي عدّدها الكاتب، لو ان الاعتبارات القومية الصرفة لم تثقل كواهل الشيوعيين من الطرفين؟

ولماذا تحتم ان يؤدي نمو الطبقة العاملة العربية واتساع التيار الوطني اليساري في المجتمع العربي الى تعميق التناقض القومي العربي ــ اليهودي الى الحد الذي يجعل من المستحيل استمرار حزب شيوعي فلسطيني عربي يهودي موحّد، بدل ان يؤديا الى توسيع القاعدة الاجتماعية التي استند اليها دعاة الحل الديمقراطي القائم على البحث عن هامش مشترك لمصالح مشتركة بين العرب واليهود، وفي وجه مصالح البرجوازية اليهودية والامبريالية. وكيف نفسر تمسك الشيوعيين، حتى بعد تشكيل العصبة بالدعوة لحل كهذا؟

والسؤال نفسه يرد بصيغة اخرى: هل كان الانقسام محتما لو جرى التمسك الدقيق والحازم بالاعتبارات الطبقية، التي هي، في الحسابات الختامية، الاعتبارات الأساسية التي يتمسك بها الشيوعيون حتى في فهمهم ومعالجتهم للمسائل القومية.

واذا كانت مصالح العمال اليهود، كما لاحظ صاحب الكتاب، بسداد شديد، قد ربطت من قبل الصهيونية بمصالحها وبمشروعها الاستيطاني، فهل كان من العسير على الشيوعيين ان يعملوا على تعميق وعي العمال اليهود وافهامهم بأن هذا الربط زائف وان الصهيونية تستغلّهم مثلما تستغل العرب؛ وعندما تستغل العرب، شأنها في هذا مع عمالها، شأن كل البرجوازيات في المجتمعات والبلدان التي تستغل مجتمعات وبلدانا اخرى. الم تكن هذه مهمة جليلة، وهي بالذات المهمة، التي على الشيوعيين ان يتمسّكوا بها، كما انها المهمة التي يكفي التصدي لعبئها